الفن والثقافة *

نستطيع أن نقول بوجهٍ عام إن الفن هو التعبير عن العاطفة ، وهو تعريفٌ وافٍ من حيث إنه لا يميل إلى مذهب من مذاهب الفن خاصةً ، ولا يجنح إلى فلسفة من فلسفاته دون غيرها ؛ فأنصار الإيديالِيزم الذين يرون أن الفن هو عبقرية الفنان ، المطبوعة بطابعه ، الموسومة بسيمة شخصيته ، المركّزة فى إلهاماته ومشاعره ، التى تسمو على الواقع سموًا كبيرًا من غير أن تتقيد به ؛ لا يحاجون فى أن العاطفة هى مثار وحيه وينبوع إلهاماته .

وأتباع الريالِيزم الذين يحصرون مهمة الفن فى تقليد الواقع والتقيد به ، لا ينكرون ما للعاطفة من عملٍ فَذٍّ خطيرٍ فى المفاضلة بين الأشياء المقلدة ، وإيثار بعضها على البعض الآخر ، وما لها من فضل فى حفز الفنان إلى الإجادة والإتقان ؛ فلا خلاف على ما للعاطفة من قيمةٍ وأثر فى حياة الفن الجميل ، ولكن يوجد خلاف بين مَرَدِّهِ إلى تحديد موضوع الفن عامة : هل ينبغى له أن يبقى خالصًا لوجه الفن بريئًا عما سوى العاطفة والفطرة ؟ أم يجوز له أن يطرق عدا ذلك مواضيع العقل وفروع معرفته وأحكام فلسفته ؟

* المجلة الجديدة ، أغسطس ١٩٣٦م .

ويتحمس فريق من الفنانين والفلاسفة للفن الخالص ، فن الفطرة والطبع ، ينزهونه عن أغراض العقل ونوازعه ، ويبرئونه من نظريات الفلسفة وتأملاتها ؛ فيرون فى الموسيقى مثلاً هبةً مطبوعةً فى أذن الموسيقِىّ ، تتذوق جمال الأصوات وتطمئن إلى مواقع انسجاماته ومحاسنه، وتؤلف منها ما يفتن الأذن ، ويأخذ بمجامع النفس وينبه فيها إحساسًا بديهيًّا فطريًّا من غير حاجة إلى أن يكون لهذا اللحن معنى عقلى يقصد إلى تصويره والتعبير عنه ، وهكذا . فالتصوير نتاج عبقرية تُمَيِّزُ بها عين الفنان ، تستطيع بفضل ما وُهبت أن تتحرى فى الألوان جمالاً رائعًا ، باديًا وخفيًّا ، وأن تعرضه فى صورٍ شتى تسر العين وتمتع النفس وتشيع فيها البهجة والغبطة . والأدب على هذا النحو ، وَصْفٌ ساذجٌ للعواطف الفطرية كالحب والألم والبغضاء واللذة ، وأما ما خلا ذلك من غايات العقل ومشكلاته فزائدٌ عن الفن الصحيح ، والإدمان عليه يفسد جوهره ويفقده رَوَاءَه وسموّه .

ولكى نزن هذا الرأى ونقدّره ، ينبغى أن نحدد معنى العقل بوجه عام. فنقول إنه كمَلَكَاته ، هو القوة المفكرة فى الإنسان ، وأما مظاهره وآثاره فهى أشتات المعارف والعلوم ؛ فهل حقٌّ أن اشتراك هذه القوة فى إبداع الفن الجميل مما يفسد جماله وروعته ؟ وهل حَقٌّ أن اطّلاع الفنان على آثار العقل مما يذهب بروائه ويهبط بسموه ؟

إنْ أراد الفنان بالاطلاع العلمى الثقافى أن يشرح ـ عن طريق فنه ـ

نظرياته ، ويُبِينَ عن مقاصده ويكشف عن مسالكه ، فقد ضَلَّ عن غايته وتَنَكَّبَ عن طريقه . وغرضه الأول والأخير هو الشعور الصادق ، والتعبير عن هذا الشعور تعبيرًا جميلاً .

أما إنْ أراد باطلاعه على العلم والمعرفة أن يزيد آفاقه وأن يهيئ لشعوره مجالاً أوسع للتسامى والاستزادة ، وأراد التعبير عن هذا كله ، فهو يعمل فى حدوده ويخلص لفنه ، ويبدع لنا فنًّا ثريًّا لا نحظى بمثله عند غيره من الفنانين الذين ينفرون من العقل والعلم ويطمئنون إلى خالص الفطرة والعاطفة .

فالفن هو التعبير عن الشعور ، والشعور يَتَأَتَّىٰ من امتزاج الوجدان بالحياة الداخلية فى النفس ، والحياة الخارجية فى الطبيعة والكون ؛ فليست المسألة أن تأتى التأثيرات من الفطرة أو من الثقافة ، فكلاهما بالنسبة للشعور سواء ، وكلٌّ منهما باتصاله بجوهره يبعث فيه الحياة والقوة والجمال ، وحقٌّ إذن أن عالم العقل ـ الداخلى والخارجى ـ يفسح المجال أمام الشعور ، ويبث فيه حيويات جديدة ، ويمده بعناصر طريفة ممتعة فى ميدانى الطبيعة والنفس .

فالمصور تشغله مناظر الألوان فى الأزهار والورود والأنهار والسماوات والوجوه ، وتتكشف له فيها عوالم من الحسن والجمال ؛ فإنْ أضاف إلى شعوره المتوقد إحاطةً بعلم النبات وعلم طبقات الأرض ، اتسع شعوره

بهذه الكائنات الطبيعية ، وعرف من تاريخها القديم والحديث ودقائق أحوالها وأطوارها ما يزيده تعمقًا واتصالاً بذواتها ، ويزيدها امتزاجًا بذاته وإثارةً لخياله وبعثًا لإحساساته .

والشاعر الذى تشرق نفسه لحب السماء وتتيه حواسه فى معارج الأفلاك ، يزداد إشراقه نورًا وتِيهُهُ روعةً إذا طلع فى علم الفلك عن حَيَوَات تلك الأفلاك اللانهائية ، وتلك السُّدُم التى تقصر سرعة الضوء عن بلوغها فى ملايين السنين .

وعلى هذا النحو ينير العلم ظلمات النفس ، ويكشف عن سراديب شخصيتها ، فيتيح للأدب فُرَصًا ثمينة لكمال الأداء والتعبير ؛ ففى بادئ الأمر لم يكن الإنسان يدرى من أمر نفسه شيئًا خَلاَ الغريزة القاهرة التى تتعهده بالمحافظة على ذاته ، وأخرى يتعهد هو بها ذريتَه ، وثالثة تربط بينه وبين قبيلته . وتَمَاشِى الفن مع هذه الغرائز والعواطف يؤدى عنها معانيها وآياتها . واستطاع الموهوبون أن يبدعوا ما هو مبدع ومُعْجِز ، وجَدَّتْ فى تاريخ الإنسانية علومٌ جليلةُ الشأن تدرس الإنسان : تارةً من حيث تاريخه ونشأته ، وتارةً من حيث علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه ويتأثر به ويؤثر فيه ، وثالثةً فيما يتصل بظاهرات ذاته وغرائبها ؛ فاتسع مجال المعرفة ، وتيسرت طرق التعبير ؛ وليس ثمة شك فى أن مَنْ يُحِطْ علمًا بهذه العلوم يزداد معرفةً بشعوره وعقله وشخصيته ؛ فإذا أراد بعد ذلك أن يعبّر عن ذاته ، فهو يملك من الوسائل ويرى من الخفايا

ويطّلع على عوالم لا يدرى من أمرها شيئًا ما لم يَدْرِ ما أمر هذه العلوم شيئًا ؛ فالشخصية الفطرية أفقر بدرجاتٍ كثيرة من الشخصية التى يضىء جوانبها العلم . وإنتاج الأولى مهما أوتيَتْ من العبقرية والموهبة ، لا يمكن أن يسمو إلى إنتاج الأخرى إذا وُهِبَتْ ما وُهِبَتْهُ الأولى من الاستعداد والفِطنة .

ولستُ أريد بذلك ـ كما قد يظهر ـ أن أُفَضِّلَ الفن الثقافى على الفن الفطرى ، كما لا يمكن أن أفضّل الفن الفطرى على الفن الثقافى ! ولعل المغالاة فى التفريق بينهما ليست إلا خلافًا وهميًّا لا يقوى على الحق والواقع ؛ فالفن يعبّر عن العاطفة ، والعاطفة تؤدى عن فطرة النفس الداخلية ، وفطرة الكون الخارجية ؛ وهذه الفطرة ـ فى النفس والكون ـ تُبدى عن عوالم خفية ـ لا تُرى بالعين الساذجة ـ إذا صُوِّبَ إليها نور العلم .

فلا يوجد ـ والحال كذلك ـ فنٌّ فطرةٍ وفنٌّ ثقافة ، وإنما الفن واحدٌ من حيث وسائله ، واحدٌ من حيث موضوعه ؛ إلا أن هذا الموضوع قد يُتَوَسَّلُ إليه باستعداد الفنان الفطرى ، وقد يُستعان عليه ـ فضلاً عن ذلك ـ بآثار العلم والفلسفة ؛ فلا أستطيع بعد ذلك أن أقيم وزنًا لأدلة أنصار الفن الفطرى ، إلا أن أسلّم بأن الجهل بشىء خيرٌ من العلم به ، أو أنَّ العَمَايَةَ عن حقيقةِ موضوعٍ مّا يزيد شعورَنا به قوةً ، وتعبيرَنا عنه جمالاً وروعة .

وقد يُقال فى سبيل ذلك إنه لا بد للفن من ستارٍ خفيف من الغموض يكسبه جمالاً وسحرًا ، وإن العلم من شأنه معرفة الحقيقة وكشف الغموض ، فيفوّت بذلك على الفن جانبًا جوهريًّا من فتنته وسحره .

وحقًّا أن العلم يجلو حقائق الأشياء ، ولكنه لا يزعم ـ ولا يمكن أن يزعم ـ أنه يبين عن كل الحقيقة ؛ ولا يزال علمنا موجةً من النور الخافت فى محيطٍ لا نهائيٍّ من الظلام .

وإن وظيفة الفن أن يسمو بالنفس إلى سماوات الجمال ، وأن يلتقى بوجدان الفرد مع وجدان الجماعة الإنسانية فى شعور واحد ، وأن يسلك شخصية الإنسان فى وحدة عامة تضم إليها أعماق الأرض وطبقات السماء ؛ وهو لن يؤدى مهمته أكمل الأداء ما لم يُؤَاخِ بين نفسه وبين العلم والفلسفة . وإنه إذا كانت الثقافة فرضُ عينٍ على الإنسان لكى يحيى نفسه بالنور والسعادة ، فمن الحرام البَيِّن أن يُمنع الفنان من هذا النور وهذه السعادة ، وهو الذى مهمته فى الحياة أن يبث النور والسعادة .

قرأت (١) *

نجيب الهلالى

الديموقراطية عَرَضٌ وجوهر . أما عرضها ففى الانتخاب والبرلمان ، وأما جوهرها فكفاءة الشعب التى تتمثل فى تربيته السياسية وحسن معرفته لحقوقه وواجباته ، وفهمه العام لوظيفته الاجتماعية ؛ وكل أولئك تؤهله لانتخاب نوابه انتخابًا صحيحًا ، وتوجيههم التوجيه الرشيد ، ثم مراقبتهم بعين اليقظة والنقد حتى يؤدوا أمامه الحساب مرة أخرى ؛ فالديموقراطية الحقة تتجه بطبعها إلى تربية الشعب وتثقيفه ، بخلاف المذاهب السياسية الأخرى التى تعمل فيها الحكومات لمصلحة طبقة خاصة ، أو التى تعمل للصالح العام من وجهة نظر طبقة خاصة . فهذه الحكومات تضنّ على الشعب بنور العلم ، أو تسمح له به فى حدودٍ ضيقة ، متعللةً تارةً بنصب الميزانية ، وتارةً بالخوف من تكاثر المتعطلين ؛ والحقيقة التى تداريها أنها تخشى يقظة الشعب ، وتشفق من استنارته بالعلم لتطمئن إلى امتيازاتها فى ظل جهله وانحطاطه .

فلنفهم جيدًا أن الفرقَ الحقَّ بين حكومةٍ شعبيةٍ وحكومةٍ أرستقراطية ؛

* الأيام ، ٣٠ من نوفمبر ١٩٤٣م .

أن الأولى تعمل لخير الشعب ، فتقبل على تثقيفه فى اطمئنانٍ وثقةٍ ورجاء، أما الثانية فلئن عملتْ لخيره ففى الحدود الضيقة التى تطمئن معها إلى ضمان رفاهيتها القائمة قبل كل شىء على استغلال الشعب .

لهذا جميعه ينبغى أن نعد نجيب الهلالى أكبر بَنّاء للديموقراطية الحقة فى مصر . وإخاله يعرف وظيفته تمام المعرفة ، ويدرك خطورة رسالته كل الإدراك ؛ ثم إنه موهوب بالكفاءة العبقرية التى تؤهله لتنوّر طريقه السوى وسط الأشواك والمتاعب والظلمات . ولا عَجَبَ ، فإنه يروم النهوض بشعبٍ كاد أن يتهالك تحت ثقل الآلاف من أعوام الظلم . . طالما ألهبت ظهرَه سياط المستبدين العتاة .

لقد قرأتُ تقرير الوزير عن تعليم الشعب ، فنزل على قلبى بردًا وسلامًا ، ورفعنى إلى سماءِ مُثُلِهِ العليا ، وأَوْرَىٰ فى قلبى جذوةَ الحماس والفضيلة ، وأرانى على ضوئه الشعبَ الناهضَ كما يريده الوزير الخطير، لا كما صنعته إرادة الظلم والطغيان . . !

قرأت (٢) *

حرية العبقرية

العبقريةُ قوةٌ سامية ، تتسم بالخَلْق والإبداع ، ولكنها لا تحيا إلا فى جو الحرية المطلق . ولا يعنى هذا أنها لا تعرف القوانين ، ولكنّ قانونها مستمد من ذاتها .

وقد قرأتُ أخيرًا كلمةً لصحافيٍّ شابٍّ وجهها إلى الأستاذ العقاد ، يريد منه أن يعدل عن الكتابة فى « العبقريات » إلى ما هو أحق بعنايته فى نظره ؛ ورد الأستاذ عليه فقال : الرأى الصواب المعقول فى هذا الموضوع هو أن الكاتب غيرُ مطالَب إلا بالتوفر على إحسان الموضوع الذى يختاره . والواقع أنه من التعسف الذميم أن نطالب الكاتب بمعالجة ما نحب من الموضوعات ؛ فهو حر فيما يكتب ، والقارئ حرٌّ فيما يقرأ . إلا أن حرية الكاتب ـ كما قلنا ـ لها قانونها الذاتى ، فهو يتلقى بحواسه التيارات التى تعمل فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ماظهر منها وما بطن ؛ وهو يستهدى بحواسَّ حرةٍ فى اختيار موضوعاته ، فتأتى معبرةً عن واقع بيئته أو آمالها أو أحلامها البعيدة المنوط تحقيقها بالمستقبل البعيد .

* الأيام ، ٧ من ديسمبر ١٩٤٣م .

ورُبَّ قارئ يسأل : هل ثمةَ دَوَاعٍ حقًّا تستوجب تاريخ عبقريات محمد وأبى بكر وعمر وعلىّ فى هذا الظرف من حياتنا ؟!

فأقول : إن هذه الموضوعات ليست غريبة بحالٍ عما يختلج فى صدر مجتمعنا ؛ ولا أتكلم هنا عن قيمتها الدينية أو أهميتها الإنسانية ، ولكنى أشير خاصةً إلى ما يربطها « بوعى » الأمة العربية ، وقد دبت فيه يقظةٌ شاملةٌ تحوط جذورها فى الماضى الغابر ، وأضاءت آمالها فى الأفق المحيط . ثم أُنَبِّهُ إلى ما يؤاخى بين روحها وبين بعض مظاهر نهضتنا الحديثة ؛ فأصحاب العبقريات هم الخلفاء الراشدون ، وهم الولاة الذين وجد الإسلام فى عهودهم خيرَ معبّر عن روحه ؛ وأعنى بروحه تلك النزعة الشريفة نحو البساطة والمساواة ، أو ما يسمونه باشتراكية الإسلام .

والاشتراكية مذهبٌ اجتماعى حديث العهد بمصر ، ولم يُهَيَّأْ له بعدُ حزبٌ ينافح عن مبادئه ، ولكنه يضطرم فى أفئدةِ كثيرٍ من الشبان .

فجملة القول إن الحريةَ للعبقرية واجبةٌ ، وإنها تستهدى بقوانينها الخاصة ، وإنها لا تضل سبيلها . . .

مخاوف كاتب

كتب كاتبٌ فى مجلة الثقافة يحذّر منَ الأخذ بمبادئ الاشتراكية ، لأنها فى رأيه لا تتحقق إلا بسفك الدماء ، ولأنها تهدد الفكر !

والواقع أن الاشتراكية أبعدُ ما تكون عن هاتيْن التهمتيْن ؛ فالاشتراكية تعتمد كلَّ الاعتماد على التطوّر . . لا الثورة كما هو الحال فى الشيوعية ؛ وكثيرٌ من زعماء الاشتراكية من المفكرين المعروفين بخدمة قضية السلام ، وليس أبعدَ عن ذهن الاشتراكى من التفكير فى سفك الدماء .

واعتماد الاشتراكية على التطوّر يكفى لدَحْض الأوهام التى ترى فيها مُهَدِّدًا للفكر البشرى ؛ فالتطور يقتضى الاعتماد على الدعاية والإقناع فى حدود النظام النيابى ؛ وإذا بلغت الاشتراكية سلطانَها فى حدود النظام النيابى ، فلن تفكر فى إلغائه ، ولن يتغير احترامُها للفكر وحريته .

ونحن نُسائل هؤلاء الـمُتَخَوِّفين : هل من تناقض بين الفكر وبين العدل الاجتماعى ؟! . . ألاَ يمكن أن تنتج علمًا وفَنًّا إلا فى مجتمعٍ مُشَوَّهٍ بالفقر والجهل والمرض ؟!

ينبغى أن يُفَرِّقَ الكُتّابُ بين ديكتاتورية الشيوعية والاشتراكية الديموقراطية ؛ فالشيوعية ـ لتَوَسُّلِها بالثورة ـ تحمى نفسها بالدكتاتورية ، ولا تسمح بالوجود إلا لحزبٍ واحدٍ ورأيٍ واحد ، وتمحو ما يخالفها من الأحزاب والآراء ؛ فيرسف الفكر فى دولتها بالأغلال . أما الاشتراكية فلا تعرف الثورةَ ولا الدكتاتورية .

للفن والتاريخ *

أم كلثوم

هى ـ كمغنية ـ خَلْقٌ فريد ، الزمانُ بمثله ضنين ، حنجرةٌ كاملة المراتب ، وصوت رخيم عذب مَرِنٌ مقتدر ، يمتاز بمزايا الصوت النفيس مجتمعةً من قوة وحنان وجلجلة وعذوبة وطول نَفَس ونفاذ تأثير؛ يحوط بكل أولئك هالةٌ زاهرةٌ من فن مبدع زادَه المِراسُ إبداعًا واقتدارًا ، فما زال يأتى بالساحر الفاتن . . وكلما انتهى بالقوم إلى درجةٍ من الإعجاز يحسبون أنْ لا غاية وراءها ، سخر منهم بإبداعه غير المتناهى ، وآذَنَهم بأنْ ليس للإعجاز غاية ولا نهاية .

وما من جحود مثل أن تقارن أىَّ صوت ـ من الأصوات المصرية المعاصرة ـ بهذا الصوت المتعالى ؛ فقُلْ فى غناء أسمهان وليلى ونور الهدى ما تشاء ، إلا أن تقارنه لصوت أم كلثوم فتضرّه من حيث أردتَ أن تنفعه ، وتهينه من حيث أردتَ أن تكرّمه ، وتمرغه فى التراب وقد أردتَ أن تسمو به إلى السماء .

وأغانى أم كلثوم تتمتع بحياةٍ وقوةٍ لا تظفر بمثلها أغانى الآخرين

* الأيام ، ٢١ من ديسمبر ١٩٤٣م .

والأخريات ، ولعل الفنانين الذين يلحّنون لها يتأثرون بحيوية روحها ونضارة صوتها ، فلم تتنكب أغنية من أغانيها نهجَ الفن الصحيح ، سواءٌ فى ذلك ألحان الأشجان أو الأفراح .

وهى بعدُ متربعةً على عرشها ، يتفتح لنا المستقبل بين يديها عن آمالٍ زاهرة ، كما انطوى الماضى على سعادات مشرقة .

زكريا أحمد

هو زعيم المدرسة القديمة دون منازع ، مع ميزة لا يشاركه فيها سواه ، وهى إجماع الموسيقيين من جميع المدارس على احترامه والإقرار له بالفن الصحيح .

وقد يختلف الرأى فى الغناء ما بين قديم وحديث ، ولكنّ الهبة الصادقة لا تَخْفَى معالمها أيًّا كان موضعها وأيًّا كان زمانها ، ولذلك انعقد الرأى فى إجماعٍ على أن زكريا أحمد فنانٌ موهوب .

ولا أقف عند هذا الحد من القول ، بل أقول إنه ـ بين كبار الموسيقيين المعاصرين ـ الوحيد الذى يستحق صفة الفنان بمعناها الدقيق . فالفن خَلْق وإبداع ، وكبار الموسيقيين الآن يوجهون جُلَّ مجهودهم نحو الاقتباس من الموسيقى الغربية ، وهذا مجهود محمود يمثل طور الانتقال إلى الموسيقى العالمية ، ولكنه من حيث المرتبة دون الفن بمعناه الحقيقى .

ولمدرسة الاقتباس هذه زعيمان بارعان : القصبجى ، وتلميذه النابغة

محمد عبد الوهاب . زكريا أحمد غير هؤلاء . هو فنان حقًّا ، ينتزع لحنه من صميم فؤاده ، ومن جوهر نفسه ؛ ربما وجدتَ فى بعض ألحانه أصداءً لأغانٍ قديمة ، ولكنها الأصداء الطبيعية التى تنجم عن تمثيل الفنان لدراساته و إفادته منها ، ولا تطمس شخصيته بحال .

ويمتاز فن زكريا ـ كما امتاز فن أستاذه الكبير سيد درويش من قبل ـ بالبساطة التى تُطْمِعُ الطالبين فى وصالها ، وتمتنع عليهم بعِصْمَةٍ لا تَلِين ؛ وكذلك بالواقعية المدعمة بالتعبير الصادق ، حتى لتلمس دائمًا تجاوبًا كاملاً فى لحنه بين اللفظ ومعناه من ناحية ، وترجمته الموسيقية من ناحية أخرى . وفضلاً عن هذا وذاك ؛ فلألحانه حلاوة مصرية صميمة تتفجر من أعماق نفوسنا فى تآلف وتفاهم ، وكأنها تحكى بإخلاصٍ تاريخنا النفسى بما فيه من ألوان السرور والوَجْد والتأمل والأمل .

والفنان لا يجوز أن يُطالَب بالانتماء إلى مدرسة خاصة ، وكل ما يُرْجَى منه الإجادة والإبداع .

والفن لا يُقاس بالقِدَم أو الحداثة ، ولكن بالجمال الذى يحلّق فوق معايير الزمن .